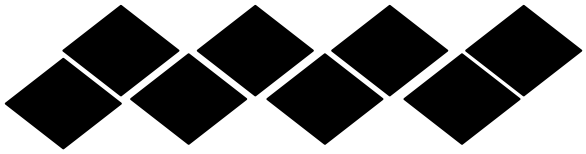

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

العبادة تعريفها وشروط صحتها وبعض أنواعها

الباحث/ أبوالقاسم بكرى محمود حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[1]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}[2]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [3].

أما بعد: خلق الله الإنسان على هذه الأرض لغاية شريفة، تسمو بوجوده عن سائر المخلوقات التي تعيش على الأرض للأكل والشرب والجنس، هذه الغاية هي عبادة الله تبارك وتعالى {وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [4].

لكن مفهوم العبادة في الإسلام ليس محصوراً في صلوات وطقوس تمارس في أوقات محددة، بل هو أوسع من ذلك بكثير، إنه منهج للحياة الإنسانية برُمَّتها {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[5] .

ويرفض مفهوم الإسلام للعبادة وجود وسطاء بين الله وعباده، فليس في الإسلام كهنوت أو رجال دين، فالمسلم يصلي وحده وفي جماعة المسلمين، في المسجد أو في البيت أو في أي مكان طاهر تدركه فيه صلاة، من غير حاجة إلى وسيط أو بناء محدد.

وإذا ما قصر المسلم في حق الله أو طمع في خير عنده؛ فإنه يطلب من الله بُغيته من غير وسيط يعترف له، ولا شفيع يرجو شفاعته {وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[6].

---

[1] سورة آل عمران، الآية (١٠٢) .
[2] سورة النساء، الآية (١) .
[3] سورة الأحزاب، الآية (٧٠-٧١) .
[4] سورة الذاريات، الآيات (٥٦/٥٧/٥٨)
[5] سورة الأنعام، الآيات (١٦٢/١٦٣).
[6] سورة آل عمران، الآية (١٣٥)

المطلب الأول: العبادة

أولاً: تعريف العبادة

العبادة منهج عملي شامل، وفق الأدلة الشرعية الثابتة.

عرّفها الشيخ بقوله العبادة لغة:الانقياد والتذلل،والخضوع يقال: طريق معبد أى: مذلل[١].

وهذا ما قاله علماء اللغة: يقول ابن فارس – رحمه الله –: "العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان: والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل. والآخر على شدة وغلظ " [٢].

ومعنى قول ابن فارس "كأنهما متضادان": أى أنه قد يراد بالعبادة اللين والذل فيقال طريق معبد: أى مذلل، وقد يراد بها القوة يقال: ناقةٌ ذات عبدة، أي ذات قوة وسِمَنٍ. وما لثوبك عَبَدَةٌ، أي قوة.

والعبادة تطلق في اللغة على معان متعددة منها: الخضوع والذلة، والقوة والصلابة، والأنفة والكراهة، والطاعة والتنسك والمملوكية [٣].

والمتأمل في هذه المعاني يراها ترجع إلى الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس، ولا تخرج عنهما. أمّا العبادة فى الشرع: فيعرفها الشيخ بقوله: العبادة: قيام العبد بما تعبد به وتكلف من امتثال الأوامر واجتناب النواهى [٤].

وقال فى موضع آخر: "أن يعبدوه" أن يفردوه بالعبادة [٥]. أى توحيد العبادة.

وقرر الشيخ هذه المعانى التى ذكرها فى تعريفه؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} [٦] أى: {قُلْ} يا محمد – صلى الله عليه وسلم – لهؤلاء المشركين: {إِنِّي أُمِرْتُ} من جانبه تعالى بـــ {أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ} سبحانه، وحده، حال كوني {مُخْلِصًا لَهُ} تعالى {الدِّينَ}؛ أي: العبادة من الشرك والرياء، بأن يكون المقصود من العبادة هو المعبود بالحق، لا غير.

---

[١] حدائق الروح والريحان (٢٥/٢٨)، المخصص لابن سيده (٩٦/١٣) لأبى الحسن علي بن إسماعيل النحوي ت "٧٣٣" هـــ ـــ مطبعة دار الكتاب المصرية ـــ القاهرة.، النهاية لابن كثير (١٧٠/٣) ط: الثانية ١٩٧٧م ـــ مكتبة المعارف ـــ بيروت.

[٢] معجم مقاييس اللغة (ص ٧٢٨).

[٣] تهذيب اللغة (٣/ ٢٢٩٩ – ٢٣٠٥) ، الصحاح (٢/ ٥٠٢ – ٥٠٤)، لسان العرب (٣/ ٢٧٢ – ٢٧٣)، القاموس المحيط (ص ٣٧٨ – ٣٧٩).

[٤] حدائق الروح والريحان (١٨٧/١٧)

[٥] حدائق الروح والريحان (٢٧٢/٢)

[٦] سورة الزمر، الآية (١٤)

والمعنى[٧]: أي قل أيها الرسول لمشركي قومك: إن الله سبحانه، أمرني أن أعبده مفردًا له الطاعة،
دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد [١].

ويقول عند تفسير قوله تعالى: {وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [٢] ينبغى للعبد أن يعبد ربه، ويتذلل لخالقه بأى وجه كان من الفرائض والواجبات والسنن، والمستحبات على الوجه الذى أمره أن يقوم فيه. فإذا كملت فرائضه، وكمالها فرض عليه، فيتفرغ فيما بين الفرائضين لنوافل الخيرات كانت ما كانت. ولا يحقر شيئاً من عمله؛ فإن الله تعالى ما احتقره حين خلقه وأوجبه، فإن الله تعالى ما كلفك بأمر إلا وله بذلك الأمر اعتناء وعناية، حتى كلفك به، وإذا واظب على أداء الفرائض؛ فإنه يتقرب إلى الله بأحب الأمور المقربة إليه [٣].

وقال عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} [٤] أى: يا أيها المكلفون من الإنس والجن وحدوا، وأفردوا بالعبادة، والطاعة، والاستغاثة، والدعاء ربكم الذى خلقكم [٥].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [٦] أى إياك نخص بالعبادة، ونوحدك، ونطيعك خاضعين لك، والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، وسمى العبد عبدًا؛ لذلته وانقياده. والعبادة: غاية التذلل من العبد، ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى؛ لأنه مولى أعظم النعم، وهى إيجاد العبد من العدم إلى الوجود، ثم هداه إلى دينه فكان العبد حقيقًا بالخضوع، والتذلل له [٧].

ولقد اتضح لنا أن الشيخ أكد على أن العبادة غاية التذلل والخضوع لله، والعبادة الصحيحة لله تعالى لا تتحقق إلا بشرطين. وفيما يلى سنتعرف على هذين الشرطين.

ثانياً: شرط صحة العبادة ولا تقبل العبادة إلا بشرطين مجتمعين، إذا فقد أحدهما أو كلاهما، لم تقبل العبادة، هما: الإخلاص والمتابعة [٨].

---

[٧] تفسير المراغى (١٢٤/٢٣)
[١] حدائق الروح والريحان (٥٠٠/٢٤)
[٢] سورة الذاريات، الآية (٥٦)
[٣] حدائق الروح والريحان (٢٥/٢٨)
[٤] سورة البقرة، الآية (٢)
[٥] حدائق الروح والريحان (٢٢٦/١)
[٦] سورة الفاتحة، الآية (٥)
[٧] حدائق الروح والريحان (٦٨/١)، لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن (٢٠/١)
[٨] إعلام الموقعين لابن القيم (٨٣/١) تحقيق: عبد الرحمن الوكيل. ط. دار الكتب الحديثة، مصر، تجريد التوحيد للمقريزي (ص:٤٢)

ولقد قرر الشيخ هذين الشرطين، فقال عن الشرط الأول الإخلاص: هو أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم أن المنة لله عليك فى ذلك حيث أهلك لعبادته

ووفقك لها، ولا تطلب من الله أجرًا وعوضًا [١].

وقال فى موضع آخر: الإخلاص أن يخلص العبد دينه، وعمله لله تعالى، فلا يشرك في دينه، ولا يرائي بعمله، وحقيقة الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين. قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شركٌ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [٢].

وقال فى كتابه "هدية الأذكياء على طيبة الاسماء": الإخلاص هو تصفية العمل للخالق عن ملاحظة المخلوق، وهو المعبر عنه فى الحديث بالإحسان [٣].

ويقول: من شرط العبودية: تفرد العبد لعبادة المعبود، وتجرده عن كل مقصود، فمن لا حظ خلقاً، أو استحلى ثناءً، أو استجلب بطاعته إلى نفسه حظاً من حظوظ الدنيا والآخرة، أو داخله بوجهٍ من الوجوه مزجٌ، أو شوبٌ، فهو ساقطٌ عن مرتبة الإخلاص برؤية نفسه[٤].

وقرر الشيخ هذه المعانى التى ذكرها فى تعريفه للإخلاص خلال تفسيره للآيات؛ فقال عند قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ*لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[٥] إنه لا ينبغى أن تكون العبادة إلا لله رب العباد وخالقهم، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين، أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه كان مشركًا، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم [٦].

وقال عند قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[٧].

أحسن الأعمال ما كان أخلص بأن يكون لوجه الله خالصًا، وأصوب بأن يكون موافقاً للسنة؛ أى واردًا للنهج الذى ورد عن الشارع، فالعمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم

---

[١] حدائق الروح والريحان (٢١٣/٣٢)، روح البيان (٤٨٨/١٠)

[٢] حدائق الروح والريحان (٣٣٠/٢) ، لباب التأويل فى معانى التنزيل (٨٦/١)

[٣] هدية الأذكياء على طيبة الأسماء فى توحيد الأسماء والصفات (٢١٤)

[٤] حدائق الروح والريحان (٣٩/٢)

[٥] سورة الأنعام، الآية (١٦٢-١٦٣)

[٦] حدائق الروح والريحان (١٨٤/٩) ، تفسير المراغى (٩١/٨)

[٧] سورة الملك، الآية (٢)

يقبل؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى: "قم صل فإنك لم تصل" [٨]، وكذا إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل أيضًا؛ ولذا جعل الله أعمال أهل الرياء والنفاق هباء منثورًا. وقول بعضهم: "حسن العمل: نسيان العمل ورؤية الفضل": هو من مراتب الإخلاص، فإن الإخلاص سر عظيم من أسرار الله تعالى لا يناله إلا الخواص [١].

قال الفضيل بن عياض فى تفسير هذه الآية: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا على ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: "إن العمل إذا كان خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [٢].

وقال الشيخ عند قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ} [٣] أى لا أحد أحسن دينًا وطريقةً ممن عرف ربه بقلبه، وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه، وجعل قلبه خالصًا لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره فى دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجابًا من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى فى الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه وتعالى ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئًا إلا من خزائنه [٤].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ} [٥] أى: فاعبد الله تعالى، ممحضاً له العبادة، من شوائب الشرك والرياء، بحسب ما أنزل فى تضاعيف كتابه على لسان نبيه، من تخصيصه وحده بالعبادة، وأنه لا ند له ولا شريك. وفى الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب، لأن الإخلاص من الأمور القلبية، التى لا تكون إلا بأعمال القلب [٦].

أما الشرط الثاني لصحة العبادة: المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا الشرط يقول الشيخ عند تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [٧] أى: فاقتدوا بى بامتثال ما نزل به الوحى منه إلىّ "يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" أى يرضى الله عنكم ويتجاوز لكم عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات

---

[٨] صحيح البخارى، كتاب: الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، ح: ٧٥٧(١/١٥٢)، صحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة، ح: (٣٩٧) ٤٥.

[١] حدائق الروح والريحان (٣٠/١٥)

[٢] مدارج السالكين لابن القيم (٢/٨٩)، والآية من سورة الكهف، الآية (١١٠)

[٣] سورة النساء، الآية (١٢٥)

[٤] حدائق الروح والريحان (٦/٣٦٩)

[٥] سورة الزمر، الآية (٢).

[٦] حدائق الروح والريحان (٢٤/٤٧٧-٤٧٨)

[٧] سورة آل عمران، الآية (٣١-٣٢)

الباطلة، فيقربكم من جنات عزِّه، ويبوئكم فى جوار قدسه؛ إذ فى هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح....." [٨].

وقال عند قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [١].

أى: اتبعوا ذلك النبى الأمى، واسلكوا طريقه، واقتفوا أثره فى كل ما يأتى ويذر من أمر الدين. أما الأمور الدنيوية المبنية على التجارب فيقول فيها: وليس من التشريع الذى يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهى ما لا تعلق له بحق الله ولا حق خلقه، من جلب مصلحة أو دفع مفسدة، كمسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم، والفنون المبنية على التجارب، وما جاء فيها من أمر ونهى فهو إرشاد لا تشريع، وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبى صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع، كامتناعهم عن تلقيح النخل حين نهاهم عنه فأشاص – أى خرج ثمره شيصاً رديئاً– فراجعوه فأخبرهم أن مقاله كان عن ظن ورأى، لا عن تشريع ووحى، وقال: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" [٢].

والحكمة فى ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجاربهم [٣].

وقال أيضا عند قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [٤] أن هذه الآية فى كل شىء يأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر أو نهى أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وكل شىء أتانا به من الشرع .. فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثرها فائدة.

أخرج الشيخان، والترمذى فى جماعة، عن ابن مسعود قال: "لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها: أم يعقوب، كانت تقرأ القرآن، فقالت: بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله عز وجل، فقالت: لقد قرأت ما بين لوْحى المصحف فما وجدته، قال: إن كنت قرأته فقد

---

[٨] حدائق الروح والريحان (٢٦١/٤)

[١] سورة الأعراف، الآية (١٥٨) .

[٢] صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً، ح: (٢٣٦٣) ١٤١.

[٣] حدائق الروح والريحان (١٧٢/١٠-١٧٣)

[٤] سورة الحشر، الآية (٧) .

وجدته، أما قرأت قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}؟ قالت: بلى، قال: فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه" [٥].

قال فى شرح الحديث فى كتابه "الكوكب الوهاج..."": إن الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما فعل وفيما ترك الذى من جملته هذه المذكورات مذكور (فى كتاب الله) عز وجل يعنى القرآن كما سيشرحه قريباً بقوله: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" أراد به أن ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو نهى عنه فإنه من جملة أوامر الله تعالى ونواهيه لأن كتاب الله أمرنا بإطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه [١].

والذى نخلص إليه مما تقدم أن الإنسان مأمور بأن يصفى وينقى عمله من جميع شوائب الشرك، وأن يفعل كل الطاعات على وجه الإخلاص والمتابعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالإيمان بالله، ورسوله، والعبادات البدنية، والمالية، ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع، والمال هو مأمور بأن يفعله خالصًا لله رب العالمين لا يطلب من مخلوق عليه جزاءًا لا دعاءًا ولا غير دعاء، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاءاً لا دعاءًا ولا غير دعاء" [٢].

فعلى الإنسان أن يجتهد في تحقيق الإخلاص في أقواله وأفعاله التي يتقرب بها إلى الله ــ جل وعلا ــ وأن يحاول جاهداً أن يربي نفسه ويعودها الأخذ بالإخلاص في جميع أعماله إذ الإخلاص من أشق الأشياء عليها.

المطلب الثانى: بعض أنواع العبادة

أولاً: الدعاء

وهو افتقار، وتذلل، وطلب ممن يملك النفع والضر فى جلب خير، أو دفع شر. وهو من أعظم أنواع العبادة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة، وقرأ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [٣].

المسألة الأولى: نوعا الدعاء

---

[٥] صحيح البخارى، كتاب: اللباس، باب: المتنمصات، ح:٥٩٣٩ (١٦٦/٧)، صحيح مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، ح: (٢١٢٥) ١٢٠، سنن الترمذى، كتاب: اللباس، باب: ما جاء فى مواصلة الشعر، ح: ١٧٥٩.

[١] الكوكب الوهاج والرض البهاج (٥٠٢/٢١)

[٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩٠/١)

[٣] الترمذى، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء،ح: (٣٣٧٠) "حديث حسن صحيح"،والآية من سورة غافر، آية (٦٠)

الدعاء ينقسم إلى نوعين: دعاء مسألة؛ وهو سؤال بأسمائه الحسنى.
دعاء عبادة: وهو التعبد لله بمقتضى هذه الأسماء، والنوعان متلازمان [٤].

وقد أشار الشيخ إلى هذين النوعين، وبين أنه لا اختلاف بينهما لأن من دعا الله فقد تحققت منه العبودية؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [١] قال "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " أى: وحدونى واعبدونى "أَسْتَجِبْ لَكُمْ" أى: أثبكم بقرينة قوله: " إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي" أى: يتعظمون عن طاعتى أو توحيدى "سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" أى: صاغرين ذليلين.

ثم يقول: إن فسر الدعاء بالسؤال بجلب النفع، ودفع الضر كان الاستكبار الصارف عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، فأقيم الثانى مقام الأول للمبالغة، أو المراد بالعبادة فى الآية: الدعاء، فإنه من أفضل أبوابها، فأطلق العام على الخاص، ففيه مجاز مرسل، ولا منافاة بين القولين؛ لأنّ دعاء الله من أنواع عبادته، وذكر حديث النبى صلى الله عليه وسلم السابق "الدعاء هو العبادة" .

وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه من لم يسأل الله يغضب عليه" [٢] وعن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "الدعاء مخ العبادة" [٣] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" [٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موضحًا هذا المعنى: "أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء مسألة. ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة. فعلم أن النوعين متلازمين، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[٥] يتناول نوعى الدعاء.

---

[٤] مجموع الفتاوى (١٥/١٠-١١)، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٧٧٨/٢) تحقيق: د/ ناصر العقل، ط: الأولى ١٤٠٤هـ .
[١] سورة غافر، الآية (٦٠)
[٢] سنن الترمذى، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء، ح: ٣٣٧٣(٣١٧/٥)
[٣] سنن الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء، ح: ٣٣٧١ (٣١٦/٥)
[٤] سنن الترمذى، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء، ح: ٣٣٧٠(٣١٥/٥) . قال الألبانى "حديث حسن" صحيح الجامع (٩٥١/٢) رقم (٥٣٩٢) ، حدائق الروح والريحان (٢٣٢/٢٥).
[٥] سورة البقرة، الآية (١٨٦)

وبكل منها فسرت الآية: قيل أعطيه إذا سألنى، وقيل أثيبه إذا عبدنى، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله فى حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا" [٦].

وهذا ما بينه الشيخ وأوضحه: أن من دعا الله دعاء المسألة فقد اعترف أنه المعبود النافع الضار وحده.

المسألة الثانية: إخفاء الدعاء

أوضح الشيخ أن اخفاء الدعاء أعظم من الجهر به ورفع الصوت، فقال عند تفسير قوله تعالى: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} [١] لقد راعى زكريا عليه السلام فى إخفاء دعائه، حسن الأدب، لأن الجهر والإسرار عند الله تعالى سيان، لكن الإخفاء أولى، لأنه أبعد عن الرياء، وأدخل فى الإخلاص [٢].

وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحًا به فى قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [٣] وقوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[٤].

يقول الشيخ وفى هذا إيماء إلى أن الإخفاء فى الدعاء أفضل إن لم يكن واجبًا، يدل على ذلك وجوه:

١- أنه تعالى أثنى على زكريا، فقال: " إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ".

٢- روى أبوموسى الأشعرى رضى الله عنه قال: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم" [٥].

يقول فى كتابه "الكوكب الوهاج..": وفي الحديث دلالة على استحباب الإسرار والمخافتة بالذكر والدعاء وهو موافق لقوله تعالى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً" ومن هنا ذكر العلماء أن الذكر الخفى أفضل من الذكر بالجهر وإن كان الجهر جائزاً بشرط أن لا يكون

---

[٦] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/١٠-١١)، زاد المعاد لابن القيم (٣٣٥/١)
(٨)

[١] سورة مريم، الآية (٣)

[٢] حدائق الروح والريحان (٨٧/١٧)، روح البيان (٣١٣/٥)

[٣] سورة الأنعام، الآية (٦٣)

[٤] سورة الأعراف، الآية (٥٥)

[٥] صحيح البخارى، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يكره من رفع الصوت بالتكبير، ح: ٢٩٩٢(٥٧/٤) ، صحيح مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، ح: (٢٧٠٤) ٤٤.

فيه رياءٌ أو إيذاء لأحد كنائمٍ ومصلٍ وقارىء ويستثنى منه رفع الصوت بالتكبير فى الجهاد فإن المقصود منه إرهاب العدو وإلقاء الرعب فى صدورهم [٦].

٣- روى عن الحسن البصرى أنه قال: إن كان الرجل لقد جمع، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعند الزور، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً".

٤-أن النفس شديدة الرغبة فى الرياء والسمعة، فإذا رفع المرء صوته بالدعاء امتزج الرياء به، فلا يبقى فيه فائدة البتة،ومن ثم كان الأولى الإخفاء؛ ليبقى مصوناً عن الرياء[١].

وما ذهب إليه الشيخ من أن إخفاء الدعاء أفضل من الجهر به قال به جمع غفير من العلماء [٢].

فالشيخ إنما أراد بقوله: "إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره" أن يؤكد أن ذلك أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء. وإذا كان الدعاء كذلك فهو أحرى بالإجابة.

المسألة الثالثة: النهى عن التعدى فى الدعاء

يوضح الشيخ أنه لا ينبغى أن يطلب من الله ما ليس فيه مصلحه للسائل خوفاً أن يكون مما لا يرضاه الله ولا يحبه، فيقع السائل فى المحظور .

يقول موضحًا هذا المعنى؛ عند قوله تعالى: {فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}[٣] إذا وقفت على جهلية الحال، فلا تطلب منى مطلبًا لا تعلم يقينًا أن حصوله صواب وموافق للحكمة[٤].

ويقول عند تفسير قوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [٥].

من الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ما ليس له كالخلود فى الدنيا، أو إدراك ما هو محال فى نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة أو يرفع صوته بالدعاء صارخًا به [٦].

---

[٦] الكوب الوهاج والروض البهاج (٧٤/٢٥)

(٩)

[١] حدائق الروح والريحان (٣٤٨/٩-٣٤٩)

[٢] القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٢٢٤/٧، ٥٢/١١). وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى(١٥/١٥-١٩). وابن القيم في بدائع الفوائد (٦/٣-٩). والألوسي في روح المعاني (١٦-٥٦). وغيرهم.

[٣] سورة هود، الآية (٤٦)

[٤] حدائق الروح والريحان (١٠٣/١٣)

[٥] سورة الأعراف، الآية (٥٥)

[٦] حدائق الروح والريحان (٣٥٠/٩)، فتح القدير للشوكانى (٢٤٣/٢)، مجموع الفتاوى (٢٢/١٥)، بدائع الفوائد (١٣/٣)

وعن النبى صلى الله عليه وسلم: "سيكون قوم يعتدون فى الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إنى أسالك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل "ثم قرأ: "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" [٧].

وللاعتداء فى الدعاء مظاهر شتى:

١- اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة فى رفع الصوت، والتكلف فى صيغ الدعاء.

٢- اعتداء خاص بالمعنى؛ وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصى ومقاصدها كضرر العباد، وطلب إبطال سنن الله فى الخلق، أو تبديلها كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتاد.

٣- اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله تعالى؛ ليشفع له عنده؛ وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال:{فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [١] ومن طلب ذلك من غير الله فقد اتخذ إلهًا؛ لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "الدعاء هو العبادة" [٢] وروى الترمذى عن أنس مرفوعًا: "الدعاء مخ العبادة" [٣].

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلوا الله لى الوسيلة"، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: "القرب من الله عز وجل"، ثم قرأ: "يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ" [٤] [٥].

فعلى العبد أن يكثر من دعاء الله سبحانه، وأن يتأدب بآداب الدعاء، وأن يحسن في دعائه والله قريب من المحسنين.

ثانياً: التوكل

عرّف الشيخ التوكل لغة بقوله:والتوكل لغة إظهار العجز عن أمر ما والاعتماد فيه على الغير.

وأما اصطلاحاً فيقول: اختلفوا فى معناه فقالت طائفة من الزهاد: التوكل أن لا يخالط القلب خوف غير الله تعالى من سبع وغيره وترك السعى فى طلب الرزق لضمان الله تعالى، وقال عامة الفقهاء والمحدثين: هو الثقة بالله تعالى والإيقان بأن قضاءه ماضٍ

---

[٧] المسند (١٨٣/١) رقم (١٥٨٤)، سنن أبى داود، كتاب: الطهارة، باب: الإسراف فى الماء، ح: ٩٦(٢٤/١)

[١] سورة الجن، الآية (١٨)

[٢] سنن الترمذى، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء، ح: ٣٣٧٠(٣١٥/٥)

[٣] سنن الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء فى فضل الدعاء، ح: ٣٣٧١ (٣١٦/٥)

[٤] سورة الإسراء، الآية (٥٧)

[٥] سنن الترمذى، أبواب المناقب، باب: فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم، ح: ٣٦١٢(٥٨٦/٥)، حدائق الروح و الريحان (٣٥٠/٩) ، تفسير المراغى (١٧٧٣٥١/٨)

واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة[٦].

وقال فى موضع آخر: التوكل سكون القلب فى كل موجود ومفقود، وقطع القلب عن كل علاقة، والتعلق بالله فى جميع الأحوال [٧].

قال العلامة ابن القيم معرفاً التوكل: "هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه، وثقته به، فتوكل اللسان شىء وتوكل القلب شىء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شىء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شىء فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: "تبت إلى الله" وهو مصر على معصيته مرتكب لها" [١].

ولقد أكد الشيخ على أن التوكل لا يكون إلا على من يستحق العبادة وهو الله جل وعلا؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}[٢].

أى: فوض إليه جميع أمورك. ثم قال: التوكل عبارة عن الاعتصام به تعالى فى جميع الأمور، ومحله القلب، وحركة الظاهر لا تنافى توكل القلب بعدما تحقق عند العبد أن التقدير من قبل الله تعالى [٣].

وقال عند قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[٤].

دلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان، وإن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره [٥].

قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه[٦].

وقال الشيخ عند قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}[٧].

أصل التوكل أن يعلم العبد بأن الحادثات كلها صادرة من الله، ولا يقدر أحد على الإيجاد غيره؛ فيفوض أمره إلى الله فيما يحتاج إليه، وهذا القدر فرض وهو من شرط الايمان،

---

[٦] الكوكب الوهاج والروض البهاج (١٤٤/٥)

[٧] حدائق الروح والريحان (٤١٦/٢٩)

[١] بدائع الفوائد لابن القيم (ص٨٦)

[٢] سورة هود، الآية (١٢٣)

[٣] حدائق الروح والريحان (٢٧٨/١٣-٢٨٠)، روح البيان (٢٠٦/٤)

[٤] سورة يونس، الآية(٨٤)

[٥] حدائق الروح والريحان (٢٢٦/١٢)

[٦] طريق الهجرتين لابن القيم (ص٢٥٥) دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان.

[٧] سورة الفرقان، الآية (٥٨).

قال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [٨] ومازاد على هذا القدر من سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطراب فهى أحوال تلحق بالتوكل على وجه الكمال [٩].

ويذكر الشيخ الأدلة على أن التوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب فيقول عند تفسير قوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا} [١٠] إن السعى فى الرزق مطلوب، ولا ينافى التوكل، ولله در القائل:

ألـــم تـــر أن الله أوحـــى لمريـــم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شىء له سبب [١].

ومن أوضح الأدلة على ذلك قول يعقوب الذى وصفه الله بالعلم فى قوله: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ}[٢] {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ} [٣] محافظة عليهم من العين ثم قال: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [٤] وفى هذا إيماء على أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل. وقد جاء فى الخبر: "اعقلها وتوكل" [٥].

ويقول: أن الإنسان يجب عليه فى كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه، ويبلغ به إلى غايته، ثم يتوكل بعد ذلك على الله فى تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لاتتم المقاصد بدونه [٦].

واستدل كذلك بقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[٧] يقول فى تفسير هذه الآية: والمراد بذلك: أن العبد يأخذ فى الأسباب التى جعلها الله من سننه فى هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب فى الأرض.

---

[٨] سورة المائدة، الآية (٢٣)
[٩] حدائق الروح والريحان (٩٥/٢٠)، روح البيان (٢٣٤/٦)
[١٠] سورة مريم، الآية (٢٥)
[١] حدائق الروح والريحان (١١١/١٧)، تفسير المراغى (٤٥/١٦)
[٢] سورة يوسف، الآية (٦٨)
[٣] سورة يوسف، الآية (٧٦)
[٤] سورة يوسف، الآية (٧٦)
[٥] سنن الترمذي، أبواب: صفة القيامة، ح: ٢٥١٧ (٦٦٨/٤) ، مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) تحقيق: حسام الدين القدسى. ط: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، مكتبة القدسى-القاهرة.
[٦] حدائق الروح والريحان (٣٠/١٤-٣٢)، تفسير المراغى (١٧/١٣-١٨)
[٧] سورة الطلاق، الآية (٣)

وكان السلف يقولون: اتجروا واكتسبوا، فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم ... كان أول ما يأكل دينه وربما رأوا رجلاً فى جماعة جنازة، فقالوا له: اذهب إلى دكانك. وليس المراد أن يلقى الأمور على عواهنها ويترك السعى والعمل ويفوض الأمر إلى الله، فما بهذا أمر الدين؛ بدليل قوله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [٨] وقوله صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكل" [٩].

وهذا الذى بينه الشيخ من أن التوكل لا يتم إلا بالأسباب مع الاعتقاد أن الأسباب لا تفيد إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد. ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا: نقص فى العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع. فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدًا على الله. لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه فى الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له، وهو مأمور بفعلها مع التوكل على الله؛ كما يؤدى الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم" [١].

ثالثاً: الخوف والرجاء امتدح الله من عباده من يجمع فى عبادته سبحانه بين الخوف والرجاء، بقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [٢] وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هاتين العبادتين معلمًا بذلك عباده، كى لا يكون المؤمن من القانطين فيما لو اكتفى بالخوف، وترك الرجاء، وكى لا يكون من الآمنين من مكر الله فيما لو اكتفى بالرجاء وترك الخوف.

وقد أوضح الشيخ هذا المعنى عند قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [٣] فقال: وقد قرن المغفرة بالعقاب فى مواضع كثيرة من الكتاب الكريم؛ ليعدل الرجاء والخوف كقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [٤] وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [٥] إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الخوف والرجاء.

---

[٨] سورة الأنفال، الآية (٦٠)

[٩] صحيح سنن الترمذى (٣٠٦/٢)، حدائق الروح والريحان (٤١٦/٢٩)، تفسير المراغى (١٤١/٢٨)

[١] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥٢٨/٨-٥٢٩)، مدارج السالكين لابن القيم (١٢٠/٢)

[٢] سورة الإسراء، الآية (٥٧)

[٣] سورة الرعد، الآية (٦)

[٤] سورة الأعراف، الآية (١٦٧)

[٥] سورة الحجر، الآيتان (٥٠/٤٩)

وقد روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: " وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد" [٦].

وقال عند قوله تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}[٧] إنه لما أمر رسول الله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة؛ أمر بأن يذكر لهم شيئًا مما يضمن التخويف والتحذير، حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير،ليكونوا راجين خائفين[١]

وما ذكره الشيخ عن الخوف والرجاء، وحال العبد بينهما أوضحه شارح الطحاوية رحمه الله بقوله: "فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأسًا. وكل واحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه؛ فالخائف من ربه إلى ربه" [٢].

ثم بين أيضًا موقف العبد من الخوف والرجاء فى حياته فقال: "إن العبد ينبغى أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة، فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه" [٣].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ * أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ} [٤].

فهذه الآيات ثناء من الله تعالى على الخائفين منه، ومدح لهم إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

روى الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجه في سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت: يا رسول الله قول الله تعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ" أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق قال: "لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه" [٥].

فالله سبحانه قد وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. يقول الشيخ: قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: "عملوا والله بالطاعات

---

[٦] حدائق الروح والريحان (١٤/١٨٠)، تفسير ابن أبى حاتم (٧/٢٢٢٤(١٢١٤٤) تحقيق: سعد محمد الطيب. ط: الثالثة ١٤١٩هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز-المملكة العربية السعودية.

[٧] سورة الحجر، الآيتان (٤٩/٥٠)

[١] حدائق الروح والريحان (١٥/٧٠)

[٢] العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى (١/ ٣٧١-٣٧٢)

[٣] العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى (١/ ٣٧١-٣٧٢)، مدارج السالكين لابن القيم (٢/٥١)

[٤] سورة المومنؤن، الآيات (٥٧/٦١)

[٥] مسند أحمد (٦/٢٠٥)، سنن ابن ماجه (٢/١٤٠٤)

واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً"[٦].

وقال الشيخ حول هذا المعنى عند قوله تعالى: {إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ سورة}[٧] هو اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغى لأحد أن يأمن عذابه تعالى، وإن بالغ فى الطاعة والاجتهاد بل يكون بين الخوف والرجاء؛ لأنه لا يعلم أحد عاقبته، ومن ثم أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا كثيرى الخوف والوجل، كما يشعر بذلك قول بعضهم: ليت أمى لم تلدنى، وقول آخر: ليتنى شجرة تعضد، إلى أشباه ذلك مما يعبر عن شديد الوجل والخشية [٨].

المصادر والمراجع

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين:

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير ــ بابن قيم الجوزية ــ "٧٥١" ، راجعه وعلق عليه/ طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٩٧٣م. ، ط. دار الكتب الحديثة، مصر، ت: عبد الرحمن الوكيل.

٢- اقتضاء الصراط المستقيم:

لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ ت "٧٢٨" هـ. تحقيق د/ ناصر العقل. ط: الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣ ــ بدائع الفوائد:

لابن القيم ــ ت "٧٥١" هـ ط:ــ المطبعة المنيرية ــ، ط. دار الكتاب العربي اللبناني، بيروت.

٤- تجريد التوحيد المفيد:

أحمد بن على المقريزي ت "٨٥٤" هـ، تحقيق: طه محمد الزيني، ط. الجامعة الإسلامية، الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٥- تفسير المراغى:

أحمد بن مصطفى المراغى ت"١٣٧١"هـ ، ط: الأولى ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.

٦ - تهذيب اللغة:

[٦] حدائق الروح والريحان (٨٧/١٩)، جامع البيان للطبرى (١٩ /٤٥)
[٧] سورة المعارج، الآية (٢٨)
[٨] حدائق الروح والريحان (٢١٨/٣٠)

أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد ت "٣٧٠" هـ، ط. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١ هـ.عناية: محمد عوض مرعب وزملائه.

٧- حدائق الروح والريحان فى روابى علوم القرآن:

محمد الأمين بن عبد الله الأرمى العلوى الهررى الشافعى ، ط: الأولى ١٤٢١هـ،٢٠٠١م دار طوق النجاة – بيروت تحقيق: هاشم محمد على بن حسين مهدى.

٨- روح البيان:

إسماعيل حقى بن مصطفى الإستانبولى ت"١١٢٧"هـ ، دار الفكر- بيروت.

٩ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد:

للإمام ابن القيم ت "٧٥١" هـ تحقيق/ شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. ط الثالثة. ١٤٠٢هـ مؤسسة الرسالة.

١٠- سنن الترمذي:

تحقيق/ أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقى، ط: ١٣٩٥=١٩٧٥م، مطبعة مصطفى البابى الحلبى- مصر.

١١- صحيح البخارى:

محمد بن إسماعيل البخارى ت"٢٥٦"هـ ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).

١٢- صحيح مسلم:

أبو الحسن مسلم بن الحجاج ت"٢٦١"هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، ط: إحياء التراث العربى – بيروت.

١٣ ـ الصحاح:

(١٥)

للجوهري ت "٣٩٣" ت: أحمد عبد الغفور عطار ط: الثانية ١٣٩٩ هـ ـ دار العلم للملايين بيروت لبنان.

١٤ ــ طريق الهجرتين وباب السعادتين:
للعلامة ابن القيم ت "٧٥١" هـ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان.
١٥- فتح القدير:
للشوكانى ت"١٢٥٠"هـ ، ط: الأولى ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق - بيروت .
١٦ ــ القاموس المحيط:
للفيروزآبادي ت "٨١٧" هـ ــ دار الجيل ــ بيروت لبنان، ط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
١٧- الكوكب الوهاج والروض البهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج:
للشيخ محمد الأمين الهررى، تحقيق: د/هاشم محمد على، دار طوق النجاة- بيروت- لبنان.
١٨- لباب التأويل فى معانى التنزيل:
علاء الدين على بن محمد المعروف بالخازن ت"٧٤١"هـ ، تحقيق: محمد على شاهين ، ط: الأولى ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٩- لسان العرب:
جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت"٧١١"هـ - دار صادر - بيروت، ط: الثانية، ١٤١٤ هـ.
٢٠- مجموع الفتاوى:
دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ =١٩٩١م.
٢١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:
علي بن أبي بكر الهيثمي ت "٨٠٧" هـ ط. دار الكتاب العربي ــ دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
٢٢ ــ المخصص لابن سيدة:
أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي ت "٧٣٣" هـ ــ مطبعة دار الكتاب المصرية ــ القاهرة.
٢٣ ــ مدارج السالكين:
للعلامة ابن القيم ت "٧٥١" هـ ــ دار الفكر بيروت، الأخيرة، ١٤٠٨هـ.

٢٤- المسند:
للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ت "٢٤١" هـ، ط. دار المعارف بمصر، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م،
٢٥- معجم مقاييس اللغة:
أبو الحسين أحمد بن فارس ت "٣٩٥" هـ، ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ت: عبد السلام هارون، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ تحقيق: د. شهاب الدين أبي عمرو، دار الفكر، بيروت.
٢٦- هدية الأذكياء على طيبة الأسماء فى توحيد الأسماء والصفات:
للشيخ محمد الأمين الهررى، تحقيق: الدكتور هاشم محمد على مهدى. دار طوق النجاة، بيروت، ط: الأولى.
٢٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر:
مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيبانى الجزرى ابن الأثير ت"٦٠٦"هـ ، ـ المكتبة الإسلامية.